الفصل الثامن

مقدمات الطباعة في أوربا

لقد شاهد القرن الخامس عشر في أوربا قدوم ثاني أهم حادثة في تاريخ تطور الاتصال الكتابي في تاريخ الانسان ، وبالتالي ثاني اهم حادثة في تاريخ الكتب والمكتبات ، فقد كانت الحادثة الاولى اختراع الكتابة ، اما الثانية فهي اختراع الطباعة باحرف متحركة في العالم الغربي . وبينما جعل اختراع الورق وصنعه اختراع الطباعة ممكناً ، فان اختراع الطباعة هو الذي اشاع واذاع استعمال الورق .

هذا وان الحماس الذي أثارته النهضة للتعلم استدعى طلباً متزايداً على الكتب لم يكن بامكان النسخ المخطوطة ان تلبيه او تسد حاجته ، وان الحاجة الى اسلوب جديد واسرع لنقل الافكار والمعرفة واذاعتها كانت ملحة وآنية . ولذلك ظهرت اولاً الطباعة اللوحية ومن بعدها الطباعة باحرف معدنية متحركة .

يرجع تاريخ الطباعة على الواح محفورة من الخشب في اوربا الى القرن الرابع عشر ، ويمثل هذا النوع من الطباعة صور الزعماء الدينيين وطباعة اوراق اللعب . ولايعرف بالضبط من اين اتت اوربا فكرة الطباعة هذه ، ولعلها اتتها عن طريق الصليبيين الذين شاهدوها في بلاد الشام واسيا الصغرى او لعلها أتتها عن طريق الروس الذين كانوا تحت النفوذ المغولي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، او لعلها اتتها عن طريق القوافل التي رجعت من بلاد الشرق الاقصى الى اوربا ومعها هذه النماذج .

هذا وان صور الزعماء الدينيين هي اقدم ممثل لهذا النوع من الطباعة وجدت في اوربا بشكل مؤكد . واول طبع للصور بطريقة الطباعة اللوحية تم في الاراضي

الواطئة . فقد كانت تطبع صور القديسين لتوزيعها على الفقراء لمساعدة الوعاظ في تثبيت مواعظهم في نفوس من يعظونهم . وكانت الصور اول امرها دينية محضة مثل صور السيد المسيح او امه او القديسين .

هذا وتعتبر صورة القديس كريستوفر التي صورت وطبعت بهذه الطريقة من اشهر اوائل الصور الاوربية اللوحية . وقد وجدت نسخة منها بمحض الصدفة داخل جلد خشبي للكتاب المقدس يعود تاريخ الصورة الى حوالي ١٤٢٣ م . وقد رسمت صورة القديس كريستوفر على ورق من حبر بني وهو يحمل السيد المسيح وهو طفل وهو يعبر جدولاً من الماء ، ويحمل كريستوفر في يده غصن نخيل كعصا ، وفي الزوايا الاربعة للصورة يوجد رسوم صغيرة تناسب الموضوع . وكتب تحت الصورة سطران باللسان اللاتيني . كذلك تعتبر صورة (مادونا مع القديسين الاربعة في الحديقة) (سنة ١٤١٨ م) مثلاً آخر نادراً على اقدم اشكال طبع الصور الدينية بالضغط على الالواح . والصورة محفوظة في المكتبة الملكية في بروكسل . ووجدت كذلك بطاقات تهنئة بحلول العام الجديد مطبوعة بواسطة الحفر على الخشب . وصورت صور الموت وطلوع الروح وأحوال النزاع في اشكال كثيرة .

ولقد صممت هذه الصور وحفرت على الخشب ليجري تلوينها بالالوان بعد طباعتها ، ولكن قسماً كبيراً منها لم يتم تلوينه وذلك بسبب الطلب المتزايد عليها مما ادى الى طباعتها بسرعة . ولقد تعاصر مع طباعة هذه الموضوعات الدينية طباعة اوراق اللعب التي طبعت بواسطة الطباعة اللوحية ، وفاقتها في الاهمية . ذلك ان عادة اللعب بالقمار واللعب بالورق انتشرت منذ القرن الثاني عشر في فرنسا ومنها انتقلت الى ارجاء اوربا . ولقد انتشر اللعب بالقمار ولعب الورق انتشاراً كبيراً حتى اضطر الملوك والاباطرة الى تحريم اللعب بالورق ولعب القمار . فعندنا سجل يذكر اوراق اللعب في المانيا سنة ١٣٧٧ م وقد صدرت عدة مراسيم تحرم استعمالها في نورنبرغ سنة ١٣٨٠ م وفي اولم سنة ١٣٩٧ م وفي اوغسبرغ سنة ١٤٠٠ م . ولقد كان انتاج اوراق اللعب يتم اولاً بشكل يدوي بسيط ، ولكن الطلب المستمر المتزايد على هذا النوع من اوراق اللعب وانتشار استعمالها وخاصة بين طبقات

العمال اقتضى ايجاد وسائل اقتصادية لانتاجها بكميات كبرى ، لذا لجأ الصناع الى ايجاد الواح محفورة وطبع اوراق اللعب عليها مع تلوينها . وان اقدم مثل حي على اوراق اللعب المطبوعة بهذه الطريقة تعود لسنة ١٤٥٥ م . وان الدافع الذي قدمه اختراع ورق اللعب للطباعة اللوحية كبير ومهم .

ولقد قدم اختراع وانتاج اوراق اللعب بطريقة الطباعة اللوحية ، في نفس الوقت ، الفرصة لانتاج صور مقدسة وصور مناظر دينية مطبوعة على مقياس واسع . ولقد ارضت هذه الصور الشعور الديني لدى الطبقات الدنيا من المجتمع الاوربي ، ذلك الشعور الذي استيقظ آنذاك وتطلب ارضاؤه انتاج مثل هذه الصور . ويبدو غريباً ان نقول ان انتاج الصور الدينية سار جنباً الى جنب مع انتاج اوراق اللعب ، وكان صناع اوراق اللعب هم انفسهم صناع الصور الدينية ، وقد صنعت اوراق اللعب والصور في نفس المعامل واستخدم في انتاجها نفس الادوات والاساليب واشتراها نفس البشر .

ولقد زاد عدد الحجاج في نهاية القرن الرابع عشر عندما وسع البابا بونيفاس التاسع دائرة الأماكن التي يمكن أن يحج إليها المسيحيون . ولذا بدأ صناع وعمال الطباعة في انتاج صور للاماكن المقدسة مطبوعة بواسطة الضغط على الخشب المحفور وبيعها للحجاج بكميات غزيرة ، وكان الحجاج يشترون هذه الصور ويحتفظون بها للتبرك .

ونحب ان ننوه هنا ان جميع الاشياء التي طبعت في اوائل القرن الخامس عشر لم يتم طبعها بواسطة الضغط على الواح محفورة من الخشب ، اذ ان بعضها على الاقل ، كان يتم طبعه بايجاد صفحة من النحاس حفرت عليها الاشياء التي يراد طبعها ، ثم طبعت المواد عنها . كذلك استعمل في بعضها النقش والحفر البارز على المعدن . ولقد تم حفر الاحرف على المعدن بنفس الطريقة التي كانت مستعملة للحفر على الخشب . ولقد كان المشتغلون بمثل هذا الحفر هم الصاغة ومن هم على شاكلتهم من عمال الطباعة .

كذلك وجد نوع خاص من هذه المطبوعات على ورقة واحدة . وهو المطبوعات بالعجينة . وتنحصر هذه الطريقة التي اخترعت في المانيا في ضغط لوح

الطباعة المكون من صفيحة معدنية محفورة ومغطاة بالحبر الاسود على الورق المغطى بعجينة لينة سريعة الجفاف . وكان تلوين العجينة يزيد من التأثير الذي تحدثه هذه الصور التي كانت تمثل مناظر دينية . ولم يبق من هذه المطبوعات بالعجينة الا مايقرب من المائة وخمسين صورة كلها في حالة سيئة .

الكتب اللوحية الاولى :

لم يبق على الانتقال من الطبع على الورقة الواحدة ، الى طبع الكتاب ذي الصفحات المتعددة غير مجرد خطوة واحدة . ولقد تم ذلك وخطيت هذه الخطوة في منتصف القرن الخامس عشر عندما تم طبع سلسلة من الصور وارفق بها نص يشرحها وجمعت كلها في كتاب وذلك بطريقة الالواح الخشبية او المعدنية وسميت باسم الكتب اللوحيةBlock Books . وتعتبر الاراضي الواطئة اولى البلدان التي ظهرت فيها الكتب اللوحية قبل غيرها ومنها انتشرت في ارجاء اوربا ، ويؤرخ ظهور هذه الكتب عادة بين سنتي ١٤٢٠ و ١٤٤٠ م . ولم يبق من هذه الكتب الا النذر اليسير ، فكل ماوصلنا منها هو ثلاثة وثلاثون كتاباً . ولما كان من المتعذر طبع الصورة على وجهي الورقة فقد جرت العادة ان تجمع الصفحات المطبوعة وان تلصق ظهراً لظهر احداهما مع الاخرى . وفيما بعد عندما بدىء في استعمال المكبس في طبع الالواح امكن طبع اللوحة على وجهي الورقة . ولقد انتشرت الكتب اللوحية كل الانتشار وازدهرت في الستينات والسبعينات من القرن الخامس عشر ولكنها انحطت في اواخر القرن الخامس عشر واستمرت في الوجود حتى اوائل القرن السادس عشر . ولقد ظهر آخر ممثل لهذا النوع من الكتب اللوحية في حدود سنة ١٥٣٠ م . ولقد استمر استخدام الطباعة اللوحية في انتاج اوراق اللعب حتى القرن الثامن عشر .

هذا وان الغاية من أوائل الكتب اللوحية كانت جعل قصص وتعاليم التوراة شعبية متداولة بكثرة في أيدي الطبقة الشعبية حتى أن الأشخاص الأميين أو شبه الأميين كانوا يستطيعون فهمها . ولقد كانت تصنع أول أمرها ، بالكتابة وترسم فيها المناظر الدينية باليد . ولما اتى الحفر على الخشب أو المعدن اتبع الصناع نفس الطريقة في الكتابة والتزيين فحفروا ذلك على الخشب أو المعدن ثم طبعوا العدد

المطلوب .

ولاشك ان عدد الكتب التي طبعت بهذه الطريقة كان كبيراً جداً لانتشارها بين طبقات الشعب لانها تناولت بصفة عامة الادب الشعبي . صحيح ان اغلب نصوصها كتبت باللاتينية ، الا ان صورها كانت اهم مافيها وخاصة في الكتب التعليمية العديدة التي كان يستخدمها صغار القساوسة في التعليم . فقد كان اغلبها صوراً مع شرح بسيط للصورة باللاتينية اسفل الصورة او حولها .

كانت قصص التوراة مع دروس وعظات أخلاقية أكثر الكتب رواجاً وشعبية وكانت أكثر الكتب رواجاً كتاب **توراة الفقراء** Biblica Pauperum وكتاب **مرآة الخلاص الانساني** Speculum Humanae Salvationis وكتاب **فن الموت** Ars Moriendi .

وقد انتشر كتاب فن الموت كل الانتشار وطبع اثنتي عشر مرة . ولقد اختلفت الصور بعض الاختلاف في كل طبعة من هذه طبعات على حين ظل النص تقريباً كما هو . وقد حوى هذا الكتاب نصوصاً باللاتينية والفرنسية والالمانية . ولقد وجدت من هذا الكتاب طبعات تحوي النص والصور مطبوعة على وجه واحد من الورقة ، ووجدت طبعات اخرى مطبوعة على الوجهين . وكانت الصور مخيفة تمثل الشيطان وهو يحاول جذب الشخص المتوفى اليه والملائكة وهي تحاول انقاذ روحه . وتدل صور هذا الكتاب على تقدم ملحوظ في فن الحفر .

كذلك انتشر كتاب**توراة الفقراء** انتشاراً واسعاً ووجد منه عشر طبعات . هذا وان موضوعات هذا الكتاب مستمدة من العهدين القديم والجديد ، وهناك تركيز على حياة السيد المسيح وتمثل الصور المشاهد وتشرح النصوص المأخوذة من التوراة هذه النصوص . وتمثل الصور الصراع بين الشيطان والسيد المسيح وانتصار السيد المسيح .

لم تكن الكتب اللوحية غالية الثمن ولذلك كانت شعبية وكانت تباع باعداد كبيرة جداً .ولقد استمر انتاج وطبع الكتب اللوحية فترة طويلة بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة وحتى نافستها في بعض المجالات ، ولقد وقع صدام

بين صناع الطرفين واضطر اخيراً صناع الكتب اللوحية الى التسليم بالهزيمة .

هذا وان صعوبات العمل الفني والحاجة الى انتاج غزير رخيص انعكست في مواصفات الكتب اللوحية والصور ووسائل الايضاح التي رافقتها حيث تشعر انها قاسية صلبة وملامح الصور غير طبيعية ، ويكاد الظل يكون فيها معدوماً . هذا وعلى الرغم من ان اختفاء هذا النوع من الطباعة عزي الى تقدم فن الطباعة المتحركة ، الا انه يجب ملاحظة ان طبيعة الالواح نفسها لعبت دوراً مهماً في هذا الاختفاء ، فقد كانت هذه الالواح هشة قابلة للكسر والتفتت وسرعة السخونة والعفونة وغير ذلك من الافات مما يجعل حياتها المنتجة قصيرة .

كذلك لابد من ذكر لنوع آخر من الكتب اللوحيةالتي انتشرت كل الانتشار في اوربا خلال القرن الخامس عشر وهي كتب المدارس الاولية . وكان الكتاب الواحد يتكون من عدة صفحات من الرق تحتوي على حروف الهجاء والصلوات الرئيسية المسيحية . ولقد اختفت هذه الكتب رغم انها كانت واسعة الانتشار . ومن اشهر الامثلة على الكتب التعليمية التي كانت ذائعة الانتشار هو كتاب**قواعد نحو اللغة اللاتينية** المسمى دوناتDonat نسبة الى النحوي اللاتيني المسمى اليوس دوناتوسAelius Donatos .

كذلك يجب ذكر الطباعة على النسيج والقماش باعتباره احد اسلاف الطباعة المتحركة . ويبدو لنا ان اسلوب الطباعة على النسيج قد ظهر في اغلب الاماكن التي اسست فيها معامل النسيج . وقد بدأ هذا النوع من الطباعة يظهر منذ القرن الخامس الميلادي في مصر ، ووجدت امثلة منه في مصر والهند والصين بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين . ويبدو ان هذا الفن فقد في اوربا ولم يعد اليها الا في القرن الثالث عشر .

وكانت عملية الطبع على القماش مشابهة لعملية الطبع على الورق . وقد ظهرت في اوربا مع ظهور الطباعة بالحفر على الخشب او لعلها ابكر بقليل .

ولابد ان نذكر هنااان اوربا كانت آنذاك مهيأة لاختراع الطباعة وكانت شروطها الثقافية والاجتماعية تستدعي مثل هذا الاختراع وتشجع عليه . فقد استيقظت اوربا على طبول النهضة ونما الطلب على الكتب بشكل متزايد . وان

اي اختراع لابد له ، كي ينجح ، من وجود شرطين اساسيين في المجتمع الذي يولد به : الاول وجود مواد يستعملها المخترع حتى يبرز فكرته الى النور ، والثاني حاجة المجتمع الى ذلك الاختراع ، والا اهمل ذلك الاختراع واصبح مصيره الى الاهمال والنسيان اذا لم يكن ذلك المجتمع بحاجة اليه او لم يكن ناضجاً او مستعداً لتقبل ذلك الاختراع واستعماله والاستفادة منه . ولعل هذا الشرط اكثر اهمية من الشرط الاول .

وان القاء نظرة على الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في اوربا آنئذٍ قد يوحي بفكرة عن المكان الذي تم فيه اختراع الطباعة باحرف متحركة لاول مرة واحواله واوضاعه .

فقد كانت المانيا لاشيء اكثر من مجرد اصطلاح جغرافي في اواسط القرن الخامس عشر مؤلفة من عدد كبير جداً من الامارات الصغيرة يرأسها شبح هو امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . كذلك كانت ايطاليا مقسمة الى عدد كبير من الدول وغارقة في فوضى سياسية ، ولكن اسس الادب الاوربي الحديث كان قد غرسها في ايطاليا قبيل ذلك عدد من الادباء العظام امثال دانتي وبترارك وبوكاشيو الذين الفوا كتبهم بلغة الشعب لابااللغة اللاتينية التي كانت لاتزال لغة الباحثين ولغة الكنيسة . وكانت البندقية رئيسة الدول التجارية في اوربا آنذاك . وقد خرجت فرنسا لتوها من حرب المائة عام ضد انكلترا وتمكنت من تحرير كافة اراضيها من سيطرة الانكليز . ومع ذلك كانت فرنسا لاتزال مجتمعاً اقطاعياً يتحكم كل اقطاعي في اراضيه وممتلكاته ، وكبير الاقطاعيين هو الملك . ووجد آنذاك في اسبانيا النصرانية اربع امارات كانت تحارب مملكة غرناطة الاسلامية باستمرار وتمكنت هذه الدول ان تتوحد في دولة واحدة وان تنهي الوجود الاسلامي في اسبانيا عندما سقطت غرناطة آخر معقل اسلامي بيد الاسبان سنة ١٤٩٢ م . اما انكلترا فكانت آنذاك هزيلة بعد طردها من اوربا وتحرير الفرنسيين اراضيهم من احتلالها ، وان يكن ظهر قبيل ذلك تشوسر الذي عرف باسم أبي الشعر الانكليزي ، اذ انه نظم اشعاره باللغة الانكليزية لا اللاتينية . وتوفي تشوسر سنة ١٤٠٠ م . وكانت روسيا لاتزال مجرد تعبير جغرافي وغارقة في

فوضى رهيبة ، ولم تتحول اقسام من النروج والسويد والدانمرك الى النصرانية الا حديثاً . وكانت اوربا تجهل اشياء كثيرة من الشرق وعن الشرق ولاسيما الطرق الموصلة اليه ؛ فلم يتمكن الاوربيون من الدوران حول افريقية والوصول الى الهند الا في اواخر هذا القرن ، ولم تستكشف امريكا الا في سنة ١٤٩٢ م . وكانت اوربا كلها ترجف امام قوة الاتراك الزاحفة التي احتلت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وتابعت تقدمها في البلقان .

ولقد اعتبر سكان اوربا القرن الخامس عشر قرناً مظلماً اسود ، ولكنه بالحقيقة لم يكن كذلك ، فقد اخترعت فيه الطباعة وبدأت فيه النهضة في ايطاليا ومنها انتشرت في ارجاء اوربا . كذلك نشط العلماء في طول اوربا وعرضها لدراسة ليس فقط الاداب النصرانية وحدها ، وانما ايضاً الاداب الكلاسيكية والوثنية . ولقد احضر العلماء البيزنطيون الذين هربوا من القسطنطينية قبيل سقوطها بيد الاتراك روائع الادب اليوناني الى اوربا التي كانت نسيت اليونانية . ولقد شاهد هذا القرن ولادة حركة الاستكشافات الكبرى التي بدأت في اواخره .

وشاهد هذا القرن عدداً من الحركات هدفها اصلاح الكنيسة النصرانية في اوربا ، ذلك ان الكنيسة غرقت في فوضى عنيفة وتمزق وانقسام وانحطاط في القرن الرابع عشر ، وبلغ الكهنة ادنى درجة انحطاطهم . ولذا بدأت في هذا القرن محاولات لاصلاح هذه الاحوال والقضاء على الفساد والفوضى والجهل ، وتشكلت انظمة كنيسة همها رفع مستوى الكنيسة ورجالها والقضاء على المفاسد فيها .

كذلك كان من حسن حظ مخترع الطباعة ان وجد المواد اللازمة لاختراعه واهمها :

الورق : ذلك ان صناعة الورق كانت قد انتشرت في اوربا قبيل ذلك كما بينا آنفاً .

المكبس : الذي يجب استعماله لتثبيت وضغط حروف الطباعة الملونة بالحبر على صفحات الورق ، وقد كان هذا النوع من المكبس معروفاً في اوربا ومستعملاً فيها آنذاك من اجل عصر الزيتون واستخلاص الزيت منه .

واخيراً : صناع حاذقون قادرون على انجاح عملية صهر الحروف وذلك بايجاد جهاز خاص لذلك الغرض ، وهذا ما كان متوفراً في اوربا آنذاك .

ولقد استفاد مخترعوا الطباعة من كل هذا المعطيات التي وجدوها في مجتمعهم واوجدوا اختراعهم الذي يعتبر من اعظم الاختراعات الاساسية في تاريخ الانسانية كلها .

واذا قلنا ان المخترع استفاد من جميع العناصر والمواد التي كانت موجودة ، او انه وجدجميع عناصر اختراعه موجودة ، فهذا لايعني اننا نقلل من قيمة اختراعه او من اهميته او عظمته ، على العكس من ذلك تماماً ؛ فان الشخص العظيم حقاً هو الذي يستفيد من جميع معطيات عصره ويحسن استعمالها والاستفادة منها من اجل الاتيان بشيء جديد لاوجود له من قبل . وهذا هو الحال في اختراع الطباعة الذي ربما لايفوقه اختراع آخر في تاريخ الانسانية قاطبة .